

# نياسة في زمن البابا فرانسيس

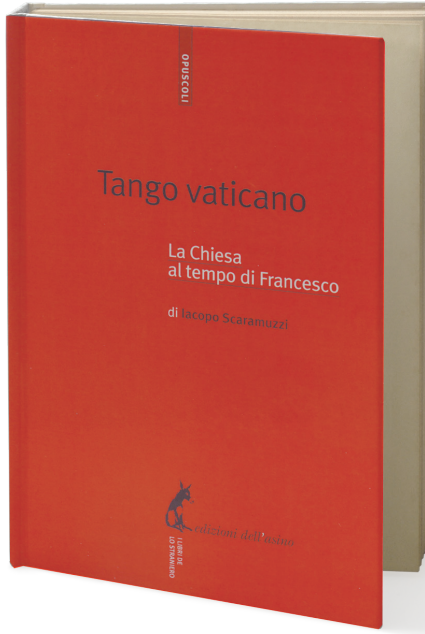
تجلى ذلك في مداولات مجلس الكرادلة تحت قبة كنيسة بطرس شارك فيه أساقفة من تونس والجزائر والرباط ونواكشوط والقاصدان الرسوليان بطرابلس وبنغازي، فضلا عن أسقف مازارا دل فالو في صقلية؛ وذلك للتباحث بشأن الأوضاع الاجتماعية والسياسية للبلدان المطلة على أوروبا. وقد عقب ذلك عقد مركز الواحة الكاثوليكي في تونس، مطلع صائفة ٢٠١٢، مؤتمر «الدين والمجتمع في مرحلة انتقال، تونس تسائل الغرب» بقصد تبين مسارات التوجهات الإسلامية التي تعتمل في المنطقة.

ولعل من اللحظات الحاسمة لكنيسة روما، كما يرى سكاراموتسي، سنة اليوبيل التي انطلقت في مطلع ديسمبر الفائت، وتواصل إلى غاية أواخر نوفمبر ٢٠١٦، بما ستكشف عنه من تعالي الكنيسة أو تعكر أحوالها، وهي سنة تبشير ونشاط بامتياز للكنيسة الكاثوليكية، تسعى من خلالها للتجدد والتوغل في النسيج الاجتماعي ليس في إيطاليا فحسب، بل في كافة البلدان التي تشهد تجمعات كاثوليكية. ولكن اليوبيل كما يورد سكاراموتسي هو اختبار من جملة سلسلة من الاختبارات أمام البابا؛ فهو يراوده حلم كسابقه لزيارة موسكو بحثا عن مصالحة إستراتيجية مع الأرثوذكسية، ناهيك عن تعذر سلوك طريق التحرير باتجاه الصين التي تشهد علاقاتها مع الفاتيكان توترا بفعل ما تصر عليه الصين كونه «حتى السماء ينبغي أن تكون صينية». وليست الأوضاع في أمريكا اللاتينية أفضل حالا فالبنتكوستاليون، الخصم المباشر للكنيسة الكاثوليكية، ينتزعون أتباع الكاثوليكية ويجلبونهم إلى أحضان المذهب المنافس.

وفي حوصلة عامة لأوضاع الكنيسة زمن فرانسيس، يقول سكاراموتسي: ليست هناك أسرار حملها معه راتسينجر في استقالته، على غرار أسرار البابا يوحنا بولس الأول الذي بقي على سدة بطرس ثلاثة وثلاثين يوما ورحل في ظروف غامضة، ولكن كل ما هو جلي أن ثمة أزمات متوارثة داخل الكنيسة، هناك من يتكيف معها وهناك من تخونه القدرة في ذلك. فهل سيضعف البابا فرانسيس «سليل الرهبنة اليسوعية» إرثه اللاهوتي وقد مزج في دراسته بين اللاهوت والكيمياء والأدب وعلم النفس، وهو ما تجلى في شخصية وجدانية تحبذ النوادر وتميل إلى الأدب والمسرح الغنائي وتغيرها رقصة التانجو؟ (ص: ١٧٠).

- الكتاب: - الفاتيكان ورقصة التانجو.. الكنيسة في زمن البابا فرانسيس..
- المؤلف: ياكوبو سكاراموتسي.
- الناشر: ديللازينو، مدينة بولونيا الإيطالية، باللغة الإيطالية، - ٢٠١٥.
- عدد الصفحات: ١٧٥ صفحة.

\* أستاذ تونسي بجامعة روما



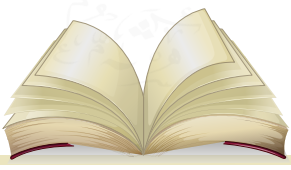
محليا وعالميا، مبرزاً أن ثمة نفوذا للمؤتمر الأسقفي الإيطالي يرهق حاضرة الفاتيكان، وهو ينفوذ نفوذ كافة مراكز القوى الأخرى؛ لذلك يتعدى على أي بابا التغاضي عن الوسط الإيطالي في القرارات الكبرى للفاتيكان. فالكنيسة الكاثوليكية ليست شركة متعددة الجنسيات، يتوزع النفوذ فيها بالتساوي، كما قد يتصور البعض، بل هي رومية إيطالية بالأساس وغربية الهوية. وتعامل أي بابا مع الحاضرة الإيطالية يعني مراعاة القوى العلمانية والسياسية، بوصف حاضرة الفاتيكان دولة داخل دولة؛ لذلك تجد البابا معنيا بالأساط العلمانية في سعي لكسبها وتفاذي الصدام معها. فلا مراء في أن حاضرة الفاتيكان قد فقدت ارتباطها الأثير بالواقع العلماني الإيطالي منذ تراجع حزب «الديمقراطية المسيحية»، اليد العلمانية الضاربة لحاضرة الفاتيكان طيلة الستينيات والسبعينيات، ومنذ غروب شمس «الكردينال اللاتكي» السياسي جوليو أندريوتي، بعد أن هيمن على السياسة الإيطالية على مدى نصف قرن؛ ولكن الكنيسة تسعى دائما للمحافظة على شجرة معاوية مع الواقع العلماني، وهو ما بدا أخيرا في حوار البابا فرانسيس مع المفكر العلماني الإيطالي أوجينيو سكارافاري.

ذلك على نطاق محلي، ولكن على نطاق عالمي كيف تتبدى سياسة فرانسيس؟ يقول سكاراموتسي: السياسة العالمية للكرسي الرسولي لا تشهد تغيرات من بابا إلى آخر، بل يصبحها تلازم مع كل قادم جديد. فكل بابا مثلا يلقي بناظره صوب المشرق وتحديدا نحو مهد المسيح عليه السلام، وإلى الأقليات المسيحية الرابضة في تلك البقاع، لا سيما في ظل التوترات السياسية التي تعصف بالمنطقة. وقد بدت دبلوماسية الفاتيكان حذرة منذ اندلاع الربيع العربي، وقد

خيمت على مداولات مجلس الكرادلة تحت قبة كنيسة بطرس قبيل اختيار البابا فرانسيس والمتمثلة في فساد القساوسة الأخلاقي، وما يُعرف بفضيحة «فاتيكاليكس»، أي تهريب الوثائق الخاصة بالبابا السابق من الفاتيكان، وإشكالية فساد «مؤسسة الإيور»، أي الجهاز المكلف بالشؤون المالية في العالم الكاثوليكي بوصفها قضايا عاجلة. وقد كان يكفي لاختيار فرانسيس بلوغ سبعة وسبعين صوتا، بيد أنه حصد مائة صوت. فهو أول بابا من أمريكا اللاتينية، أو كما يُسمى داخل الفاتيكان «الوافد من العالم القوي»، من فضاء يضم ٤٢٥ مليون كاثوليكي، أي ما يقارب الأربعين بالمئة من كاثوليك العالم. والحال أن فرانسيس لم يكن خيارا لكرادلة أمريكا اللاتينية فعددهم لا يتجاوز الـ ١٩٠ من ضمن ١١٥ كرديناالا في حاضرة الفاتيكان ممن يخول لهم اختيار البابا، وخلال انتخابه كان يبلغ عدد كرادلة أوروبا ٥٢ بالمئة من جملة العدد الجملي. فلا يمكن الحديث عن شعبية واسعة لماريو برجوليو (فرانسيس) في جنوب القارة الأمريكية، فالرجل كانت تربطه علاقات مشبوهة بالطغمة العسكرية في بلده (ص: ٩٧)، ناهيك عن خصومته المتجذرة مع لاهوت التحرير. وليس بمعنى أن البابا يسفه طروحات لاهوت التحرير في ما يدعو إليه من موالاة للفقراء، بل لأن برجوليو في سابق عهده ينحو نحو «لاهوت الشعب» المنقى من الشوائب والأبعاد اليسارية والماركسية، وهو اللاهوت الذي أرسى أركانه اليسوعي خوان كارلوس سكانوني معلم برجوليو وملهمه، وهو في الواقع لاهوت نشط في جنوب القارة للوقوف أمام إغواء لاهوت التحرير، مستندا إلى مقولات اللاهوتيين اليسوعيين كارل راهنر وهنري دي لوباك.

صحيح أن الصورة الراجحة أو المرؤجة من المكتب الإعلامي للكرسي الرسولي بالفاتيكان «Sala stampa» عن فرانسيس أنه بابا البسطاء، وقد ترافقت تلك الصورة بإحياء طقس تقبيل أقدام المساكين وغسلها بعد هجران الكنيسة لذلك، عنوانا للتواضع، ولكن ما هي الخطوط الكبرى لسياسة فرانسيس الدينية؟ يجيب سكاراموتسي: إن كان لماريو برجوليو مسعى للتجديد، فهو مدعو لإصلاح هيكل الفاتيكان، وليس لإضفاء جوهر جديد على المسار اللاهوتي، وقد عجز سلفه راتسينجر عن إتيان ذلك فاضطر إلى الاستقالة. لذلك عزم البابا منذ اعتلائه كرسي البابوية على خوض إصلاحات عاجلة انتدب لها تسعة كرادلة مختلفي الجنسيات بقصد الاستعانة بهم، عُرف بمجلس الحكماء، وهو جهاز استشاري وفق «القانون الكنسي»؛ لذلك لا يعلق المراقبون أملا كبيرا في إدخاله تحويلات فاعلة، ويعتبرون برجوليو من خلاله «لا يحرك سوى الريح» بوصفه وريث المحن، فالبابا يمر، والكوريا رومانا (الجهاز التنفيذي في الكنيسة) باق.

ويواصل سكاراموتسي رصد التحديات التي تواجه فرانسيس



# الفاتيكان ورقصة التانجو.. الك

عزالدين عناية \*

مؤلف الكتاب ياكوبو سكاراموتسي، أحد المتخصصين الإيطاليين في الشأن الفاتيكاني؛ أي من طائفة الخبراء المعروفين باسم «الفاتيكانيسستا». والفاتيكانيسستا ليس إعلاميا معنيا بمتابعة الشأن الإخباري لكنيسة روما فحسب، بل هو أيضا متابع لسير أنشطة الحبر المقدس ومراقب للتحويلات الدينية وتداعياتها الاجتماعية، في ظل ما يربط إيطاليا وحاضرة الفاتيكان من تواشج؛ حيث يتناول كتاب سكاراموتسي - المعنون بعنوان رئيسي رمزي «الفاتيكان ورقصة التانجو»، وآخر ثانوي توضيحي «الكنيسة في زمن البابا فرانسيس» واقع الكنيسة وتحدياتها في زمن البابا الحالي، وهي بحق كنيسة مأزومة لاحت أعراض ذلك جلية مع استقالة الحبر الأسبق وتخليه عن مهامه في أجواء درامية. حيث يُقسّم سكاراموتسي كتابه إلى محاور يبلغ عددها خمسة عشر محورا، يردفها بحوارات مع شخصيات لاهوتية نافذة. تتصاعد قداما في تغطية فترة البابا الحالي، بدءاً من ظروف استقالة راتسينجر الفجائية التي يعتبرها سكاراموتسي الحدث الرئيس الذي صنع البابا فرانسيس؛ كونه ما كان مرشحا لقيادة سفينة بطرس، بل كان بابا الضرورة كما يسميه (ص: ١٥)؛ إلى محاولة الكاتب رصد إستراتيجية البابا، عبر تلمس المسارات التي سيقود الكنيسة صوبها في المرحلة المقبلة. إذ صحيح أن كنيسة روما من أكثر المؤسسات الدينية الحذرة والمترتبة، ولكن يبقى لكل بابا لونه الخاص في التعاطي مع مجريات أحداث العالم، والتي يبقى كل وقدراته في التوفيق في جر الكنيسة نحوها.

برأيه وصعب المراس، ولكن نظرا لفضله في بلوغ ما يصبو إليه حاول الاستقالة في عديد المرات، مبررا ذلك بتسرب «دخان الشيطان وسط الكنيسة»، والمتمثل في ثلاث قضايا عسية: اعتداءات القساوسة الجنسية على الصبية، وهي فضائح مهينة أُثيرت خلال العام ٢٠٠٢ في الولايات المتحدة، ثم تفجرت مجددا في إيرلندا خلال ٢٠١٠ إبان فترته، وتبع ذلك تنديدات عالمية بالفضائح في النمسا وبولندا وبلجيكا وهولندا وإسبانيا والبلدان الإسكندنافية. استشرى الفساد المالي في حاضرة الفاتيكان. وهو ما أجبر راتسينجر على توقيع تعهدات للمجلس الأوروبي للحد من الأنشطة المالية المشبوهة عقب رفضه إلقاء الفاتيكان «بالقائمة المالية البيضاء»؛ مما أثار ضده عاصفة هوجاء داخل الفاتيكان.

تسلط بعض أطراف الإكليروس على الكنيسة وتضخم الجهاز البيروقراطي فيها، وهو ما يوشك كما أوضح ذلك في كتابه «نور العالم» أن يحولها إلى مؤسسة دينوية ربحية. ووفق قراءة سكاراموتسي لشخصية راتسينجر، فقد كانت تعوز الرجل الدبلوماسية لا سيما تجاه الأديان الأخرى، تجلى ذلك في خطاب راتيسبونما وما خلفه من توترات مع المسلمين، وفي إهانة اليهود بعد عزمه على إحياء القُداس اللاتيني المتضمن لدعوة صريحة لهم بالتحول للمسيحية، ناهيك عن رفعه الحرمان عن تنظيم اللوفابريين المعروف بتوجهاته اللاسامية، فضلا عن فسحة المجال لتطويب بيوس الثاني عشر البابا الإشكالي زمن «المحرقة اليهودية». فقد تبدو استقالة راتسينجر نابعة عن أزمة شخصية أُلتمت به، والحال أنها تعبير عن أزمة بنيوية تخترق الكنيسة، توجها راتسينجر بانقلاب على ذاته وعلى الجهاز التنفيذي، الكوريا رومانا.

وفي مقابل ذلك، يتعرض سكاراموتسي للقضايا الرئيسية التي

الصادقين»، وهي تصريحات محرمة في زمن البابا ووجتيللا المناهض للشيوعية. لاحقا يستعيد سكاراموتسي حدث استقالة البابا راتسينجر، معتبرا أن أسبابها العميقة لا تزال تخيم بظلالها على الكنيسة في زمن البابا فرانسيس؛ فالاستقالة ما كانت شيئا عَرَضاً أو أمرا هيئيا. ترك راتسينجر السفينة وهي تكابد أعتى العواصف المتمثلة في الفساد المالي والفساد الخلقي؛ لذلك تبدو مهمة البابا الحالي شائكة ومعقدة في الآن. فقد كان تخلي الحبر الأسبق عن مهامه واختياره العزلة بعد أن دامه اليأس، مع أنه من أكثر رجال الكنيسة إماما بشؤون البيت الفاتيكاني. كان قد سيم راتسينجر كردينا لا خلال العام ١٩٧٧ زمن يوحنا بولس السادس، ثم دُعي إلى روما خلال العام ١٩٨١ من قبل يوحنا بولس الثاني لتولي مهام مجلس مراقبة العقيدة، أعلى المؤسسات الرقابية ووريث محاكم التفتيش، بوصفه مفتشا عاما للعقائد. تقلد راتسينجر مهامه البابوية يحدوه أمل في تفعيل رؤاه اللاهوتية «النقية»، وكأن حال الكنيسة يحتاج إلى تَعْمِيد وأنجلة جديدين. فكان يراوده حلم إعادة مُجد التوماوية في زمن عصفت فيه الحداثة بالعديد من الثوابت حتى أوشكت أن تهز أبواب قلعة المحافظة العتيدة في روما، كما يلخص سكاراموتسي الوضع. ضمن هذا السياق بدا المقصد الأعلى لاختيار راتسينجر مدفوعا بخوض إصلاحات جوهرية بعد أن استشرى فساد مريع زمن البابا كارول ووجتيللا. فكان راتسينجر مهووسا بالقيام بتحويلات عاجلة جراء ما يتهدد الكنيسة من مسخ حولها إلى مؤسسة شبه علمانية، منهكة بالسلطوية والتفرد. وبفضل الخاصيات الدوغمانية المتصلبة لراتسينجر، وجد نفسه منساقا في مسار لاهوتي معزول، ما جره لمجابهة قوى مناوئة تتحكم بسير عجلة الفاتيكان. فوفق الفاتيكانيسستا سكاراموتسي راتسينجر شخص معتد

فإن يكن البولندي كارول ووجتيللا هو البابا المناور واللاهوتي المسيس؛ لما قام به من دور فعّال في نخر الشيوعية، فضلا عما قام به من رحلات مكوكية عبر أصقاع العالم، بشكل فاق أسلافه، سبيلا للتبشير برسالة الإنجيل حتى تحول إلى صورة إعلامية معولة؛ فإن البابا المستقل الألماني جوزيف راتسينجر، قد طبعه طابع أكاديمي بارد دفعه للبحث عن بعث روح المسيحية العميقة، دون تعويل على الحضور الإعلامي المفرض على غرار سابقه؛ كون البيت الداخلي أولى من العالم الخارجي برسالة الإنجيل، بعد أن تحولت الكنيسة إلى «سوبرماركت» ديني مفتقر للروح وفق توصيف سكاراموتسي (ص: ٢٣). وفي الوقت الحالي تغلب على البابا الأرجنتيني فرانسيس ماريو بروجوليو، الآتي من أقاصي العالم الكاثوليكي، صورة القديس المتدثر بلباس الورع والتواضع في منسكه ومسكنه؛ باعتباره «أثر كنائس الجنوب». فقد أبى منذ اعتلائه سدة البابوية السكنى في القصر الرسولي المنيف واختار بيت القديسة مارتا المتواضع، كما رفض تقلد الصليب المذهب وانتقى صليبيا بسيطا من معدن زهيد، عنوانا لمسلك التقشف الذي اختاره. فالرسالة البابوية الأولى لفرانسيس والتي خُصصت للحديث عن الأزمة المالية والاقتصادية جاءت بعنوان: «العناية بالبيت المشترك»؛ حيث استلهم نصه «كن مُسَبِّحا» من مقول القديس فرانسيس الأسيزي في «تشيد الخلائق»، مُعتبراً أن الأمر لا يتعلق بمجرد طيبة ورأفة تجاه المعوزين، بل لأن الفقير يذكر بعالم سقيم. فأن يخصص حبر الكنيسة الأعظم رسالة بابوية تعنى بالشأن البيئي والاقتصادي ما يشي بتحول في اهتمامات اللاهوت الكاثوليكي للخروج للعالم العلماني في ثوب جديد. وقد بدت ملامح هذا الخيار التصالحي الجديد على ما يورد سكاراموتسي (ص: ٥٢) في تصريح فرانسيس غير المألوف: «لست شيوعياً، ولكنني عرفت العديد من الشيوعيين